الباب الأخير

وداعا غرناطة

إن القلوب لتدمى، وإن النفوس لتذهب حسرات على ضياع الفردوس المفقود، إن لمصرع غرناطة آخر معاقل الإسلام حكاية عجيبة، عجيبة.

لقد ظلت الأندلس، أو أسبانيا المسلمة تصارع النصارى الذين يتربصون بالإسلام الدوائر ولا يزالون على مدى ثمانية قرون، وظلت النصارى تنتزع من المسلمين الثغور والبلاد والمدن والحصون، حتى جاء القرن الثامن الهجري ولم يعد في جيد دولة الإسلام في الأندلس غير عقد واحد أو قلادة واحدة يتيمة أو درّة غالية هي غرناطة.

كانت غرناطة وحدها تواجه العدو المتربص بالإسلام، لكن واأسفاه فإن هذه المملكة الأخيرة غلبتها الصراعات، وقضت عليها الأطماع، وعجّلت بها الخيانة إلى مصيرها المحتوم.

حين كان الخطر يداهم غرناطة كانت تنشط إلى الاستعانة بجارتها القوية المسلمة دولة بني مرين.

وحدث أن ولي عرش غرناطة سنة ٨٧١ للهجرة أحد سلالة بني الأحمر وهو السلطان أبو الحسن علي بن سعد النصري الأحمري.

وصل الأحمري إلى العرش بعد مغالبة منافسيه على العرش وفي مقدمتهم أخوه أبو عبدالله المعروف بالزغل.

نشط أبو الحسن إلى تحصين مملكته وتنظيم شؤونها، واستطاع -بهمته- أن يعيد الكثير من الحصون والثغور التي استولى عليها الفرنجة؛ ولكن لم يطل أمد ذلك الهناء الذي تمتعت به دولة الإسلام؛ إذ أحنق السلطان قادته حين أخذهم بالشدة والعنف، وبما نزع إليه من لهو وعبث.

كان للأحمري ولدان من زوجه عائشة ابنة السلطان أبي عبدالله الأيسر هما محمد ويوسف، لكن لم يلبث السلطان أن تزوج بنصرانية هي ثريا الرومية، التي أعقب منها السلطان ولدين، طمحت النصرانية إلى تنحية ولدي عائشة عن ولاية العهد، فدست لها عند السلطان، فما كان منه إلا أن اعتقل زوجته عائشة وولديها في برج حصين هو برج قمارش، وانبعثت بذلك شرارة الفتنة، وكره الناس أن تكون سيدة غرناطة الأولى نصرانية..

وفجأة فرت عائشة بولديها من غرناطة، سنة ٨٨٧هـ، ولم يلبث ابنها الأكبر أبو عبدالله محمد أن قاد الثورة على أبيه وجلس مكانه على العرش أواخر تلك السنة، وفر الأب إلى مالقة منضماً إلى أخيه الزغل.

هنا نشط النصارى للغزو، فسار ملك قشتالة بجيش لجب إلى مالقة لكنه انهزم في صفر سنة ٨٨٨هـ، لكن إصرار الملك الشاب على تتبع النصارى انتهى به إلى الهزيمة في شنيل، وسقط السلطان الشاب أسيراً في أيدي النصارى.

وثب عمه الزغل على العرش بانسحاب أخيه أبي الحسن وزهده في الحكم، أما أبو عبدالله محمد بن أبي الحسن فظل يرسف في أغلال الأسر، ووجدها ملك قشتالة فرصة ذهبية ليسيِّره وفق أهوائه، وعرضت أمه عائشة على ملك قشتالة أن يعود ابنها إلى العرش في ظل مملكة قشتالة.

وأطلق الملك سراح أبي عبدالله، فنشط إلى جمع الجموع، وأعلن الثورة على عمه الزغل، وتواصل القتال بين الطرفين مدى شهور، وفي الوقت نفسه أرسل ملك قشتالة جيوشه واستولى على بلسن سنة ٨٩٢هـ.

وخرج الزغل لملاقاة الفرنجة ليسترد بلسن، وإذا به عند عودته إلى غرناطة يفاجأ بالمدينة وقد أغلقت أبوابها في وجهه، وقد ولَّت على العرش أبا عبدالله.

كان ذلك سنة ٨٩٢هـ، واعتزم ملك قشتالة الإجهاز على ما بقي في جيد دولة الإسلام من حلي وقلائد، فزحف على مالقة واستولى عليها وثنَّى

بالمُنكَّب والمرية بعد عامين، ثم على بسطة سنة ٨٩٥هـ ثم اقتحم وادي آسن في صفر من السنة نفسها واستولى عليه فاضطر الزغل إلى الاستسلام.

ولم يبق أمام فرديناند سوى غرناطة.

طلب ملك قشتالة من أبي عبدالله سنة ٨٩٥هـ تسليم الحمراء، شريطة أن يبقى في غرناطة في ظل سطوة القشتاليين، لكن أهالي غرناطة ثاروا، وحملوا سلطانهم على الجهاد، فخرج بعد أن عبأ الجيوش وحارب الفرنجة وانتصر عليهم في عدة مواقع واسترد كثيراً من المعاقل والحصون، وعاد إلى غرناطة ظافراً، فاحتفلت به غرناطة وهتفت له هتافاً مدوياً.

عندئذ استشاط فرديناند غضباً، وخرج في جنده مزوداً بالمدافع والذخائر وحاصر غرناطة في جمادى الآخرة سنة ٨٩٦هـ أو آذار سنة ١٤٩١م.

نفذت الأقوات من المدينة، واشتد الجوع بالأهالي، وأيقن الكل أنه من العبث مقاومة القشتاليين الذين دأبوا على قذف الأسواق بالمنجانيقات، وقتلوا من أهل غرناطة خلقاً كثيفًا.

اتفقت كلمة القادة على تسليم المدينة، وأرسلوا مبعوثاً ليفاوض ملك قشتالة، فسر الملك سروراً عظيماً بعد أن كاد ييأس من الغزو والحصار.

وكانت شروط المسلمين للتسليم ما يأتي:

* تأمين المسلمين في الأعراض والأموال والأنفس.

* أن يظلوا على عقيدتهم ويأمنوا في دينهم، وأن تبقى المساجد آمنة.

* ألا يتولى عليهم نصراني أو يهودي.

* أن يغادر غرناطة من يشاء منهم إلى المغرب على سفن ملك قشتالة.

دخلت جحافل النصارى غرناطة في ربيع الأول سنة ٨٩٧هـ (كانون الثاني ١٤٩٢م) فاحتلوا الحصون والقصور، ورفعوا راية النصرانية على المدينة.

فهل وافق الشعب والأهالي على الاستسلام المهين؟

لا..!

فحين أذيع الخبر سخط الأهالي على أبي عبدالله وعدوه أساس كل المصائب والنوائب واشتدوا في سبه وتجريحه.

وحين قامت ثورتهم اشتد النصارى في قمعها، وألقوا بالثوار في السجون والمعتقلات وتفننوا في تعذيبهم.

أما أبو عبدالله الخائن فبادر بمغادرة قصره، وقدم مفاتيح الحمراء لملك قشتالة قائلاً:

إن هذه المفاتيح هي الأثر الأخير لدولة الإسلام في أسبانيا، وقد أصبحت أيها الملك سيد تراثنا وديارنا وأشخاصنا، هكذا قضى الله فكن في ظفرك رحيماً عادلاً.

ثم هرع يرحب بالملكة إيزابيلا ويعلن خضوعه.

نشط الخائن بأسرته إلى مغادرة غرناطة ليحكم إقليم البشرات في ظل مملكة قشتالة، ولم ينس أن يصحب الكنوز والمتاع معه.

وقد أشرف أثناء مسيره على مناظر غرناطة فبكى، فصاحت به أمه تؤنبه.

أجل، فلتبك كالنساء مُلْكاً لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال.

وبذلك طويت صفحة مجيدة من تاريخ الأندلس، الفردوس المسلم المفقود.